«شارع الهوى»..
خذوا الحكمة من أفواه المجاريح
(١)

أقف أمام المرآة ممسكًا في يدي ماكينة الحلاقة، وزّعت كمية لا بأس بها من كريم الحلاقة فوق خدي وشاربي، لا أعرف إن كنت جادًا في حلاقة لحيتي التي بالكاد يُزهر خَضَارها، في هذه المرحلة نتحسس تفاصيل ذكورة تنبت في «مؤخرة» المخ؛ لتقود سفينة مراهق مجنون باحث عن الاختلاف، يقضي يومه بين ألبومات «منير» و«عمرو» و«محيي» و«حميد»، ويهرب من كتب الثانوية إلى سلسلة «ما وراء الطبيعة» لأحمد خالد توفيق.

توقفت طويلًا أمام المرآة، كنت مترددًا دون سبب واضح، بالتأكيد لم أتذكر الحكمة الإنجليزية التي تقول: «الحرية تقاس بكمّ الأشياء التى تخاف أن تفقدها»، لن أندم على فقدان لحيتي وشاربي، ولكن الاحتفاظ بهما بعد ٢٠ عامًا أصبح موضة تدفعك للندم إذا تخليت عن إعجاب فتاة عشرينية بشعيرات لحيتك البيضاء.

كانت أمي تمنعني من تشغيل الكاسيت في الحمام، أمام مسميات الحرام، واستجلاب «اللي يجعل كلامنا خفيف عليهم»، كنت أضرب بكلامها عرض الحائط وأضع سماعات

«الووكمان» في أذني؛ لأنهي مهمتي بمزاج، تجزم أمي أن هناك عفريتًا لبسني منذ ذلك الوقت، ولا أنفي تلك التهمة، بل أؤكدها!

يتسلل صوت «محيي» إلى خلايا العقل مضيئًا اللون الأخضر في إشارة الذكريات، فتمرّ المشاهد والحكايات بارتباك مثلما هو الحال في إشارة روكسي، مسخرة أن تتحول قصة حب قصيرة عمرها خمس مكالمات هاتفية لمراهق إلى ذكرى حقيقية، استدعاء الذكريات عادة قاتلة تصاحبني منذ الطفولة حتى الآن، لم أتعلم من الحكمة الصينية التي تقول: «الذكريات مثل أطباق الشوربة الرديئة في المطاعم الرخيصة، من الأفضل ألا تحركها»، تتناول الحساء الرديء فتصاب عادة بالقيء والإسهال، أما اجترار الذكريات فيصيب خططك المستقبلية بشلل مروري تام، عندها ستجد نفسك مؤمنًا بمقولة ويللا كاثر: «بعض ذكرياتنا أفضل من كل ما يمكن أن يحدث لنا ثانية»، لا تصدّقها وأقنع نفسك بمقولة تامر حسني: «لسه اللي جاي أحلى»، حتى لو لم نر أي حلو من يومها!

يجيد محمد محيي إعادة صياغة ذكرياتك بمرور الزمن، مرّ عشرون عامًا على أغنية «شارع الهوى،» وما زال أصدقائي القدامى يسخرون منها.

مرسي السيد الملقب بشاعر المصريين كتب الأغنية ضمن مجموعة قصائد كان يلقيها كفواصل ضمن ألبوم «معرفتك انتحار» لعلي الحجار، والذي صدر في مطلع الثمانينيات، ولكن قصيدة «شارع الهوى» لم تُطرح في الألبوم لجرأتها، ولكن

الألبوم ضم قصيدة «ده اللي انتي طايره بيه»، والتي غناها «محيي» أيضًا تحت اسم «نداء»، وهي القصة التي ربطت بين «محيي» ومرسي السيد، سمع المطرب الشاب قصيدة «نداء»، فذهب لبيت مرسي السيد، فرفض التعاون معه في البداية، وكرر «محيي» الزيارة بإلحاح فشعر «مرسي» أن هذا الشاب يملك شيئًا مختلفًا، وأخيرًا وافق على منحه الأغنية التي صدرت في ألبوم «روح قلبي» عام ١٩٩٤، بالمناسبة نفس الألبوم ضم أغنية «الصبر جميل» من كلمات الشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم، والذي رفض هو الآخر التعاون مع «محيي» في البداية ولكنه وافق بعد إلحاح، وكأن «محيي» كان يثبت وقتها أن صوته لن يغني سوى كلمات الكبار فقط.

(٢)

سمع «محيي» أغنية «شارع الهوى»، فطلب من «مرسي» أن يغنيها، رفض الشاعر في البداية؛ خوفًا من عدم فهم الجمهور لها، ولكن «محيي» أصرّ، ولحّنها محمود طلعت، ووزّعها «فهد». يحكي «محيي» أن محمد منير سمع الأغنية خلال تسجيلها، فقال له: «إنت مجنون يا ابني.. إيه اللي هتغنيه ده؟»»، حاول الجميع إثناءه عن قراره، ولكنه أصر، صدرت الأغنية وكنت الوحيد تقريبًا الذي أحبها!

ذات مساء ضحك صديقي «هاني» عندما أدرت الكاسيت لأسمعه الأغنية، قال لي لفظًا خارجًا أعقبه بمقولة لن أنساها: «هذه الأغنية اختصار للحكمة الشهيرة اللي عنده معزة يربطها»، مرّت سنوات كثيرة حتى احتلّت هذه المقولة «ترينـد السوشيال ميديا»؛ بسبب مداعبات بين طفل وطفلة

في المرحلة الابتدائية، وانتشر الفيديو تحت مسمى ترويجي شهير «مقطع عبد الرحمن والمعزة».

في كل قصص الحب يلعب أهل الملامة دورًا مهمًا، هؤلاء الأصدقاء من هواة كتابة روشتات العلاقات الناجحة؛ بحثًا عن إجابة للسؤال الشهير: كيف تنجح قصة حبكما؟ فنجد أنفسنا في النهاية نبحث عن إجابة لسؤال واحد هو: كيف نفترق بأقل خسائر ممكنة؟

يغني محيي «أهل الملامة فرقوا بينّا يا طير»، فأتذكر نصيحة صديقة لحبيبة سابقة: «استمرارك معاه انتحار، انتي تستحقي أحسن من كده»، آمنت البنت بكلامها، وانسحبت بحثًا عن الأفضل فلم تجده، ولم تجدني حتى الآن، ترنّ الجملة في أذني، فأتخيل هذه الصديقة مثل «الزومبي» الذي اختاره المخرج طارق العريان بطلًا لأول كليب رعب رومانسي، اختصار أهل الملامة في صورة الدجالين والمشعوذين خلال الكليب أفقد الأغنية عمقها، ولكنه منحها قدرًا لا بأس به من الجدل ومساحة مناسبة لـ«الألش» بعد سنوات.

(٣)

لا أومن بمقولة أوجين أونيل: «ذاكرتنا تتمسك بإصرار شديد بالذكريات الكريهة المنفرة.. أما الأشياء الجميلة فلا بد أن نكتبها في مفكرتنا حتى لا ننساها». لديّ في كل قصة قائمة طويلة من الذكريات الجميلة، ولكن يبدو أن محمد محيي مصرٌّ على إبدالها بالوجع، عندما يغني «أعاتبك» لا أتذكر ما فعله الآخرون بي، ربما يستيقظ ضميري لينشُر في

الروح بعنف وهو يؤنبني على لحظات التخلي التي مارستها بدم بارد، كم مرة قالت لي: أنصفني، فخذلتها؟ آخر مكالمة قالت فيها: «أريد رؤيتك الآن وإلا سأنتحر»، اعتبرت الطلب تهديدًا أحمق، ولكنني تعلّمت بعدها ألا أستخف بتهديد امرأة ما دمتُ حيًّا.

أعاتب نفسي على الويل والجراح والعمر اللي راح يا «محيي»، وأعاتب نفسي على أنني لم أكتشف عبقرية عصام كاريكا كملحن إلا متأخرًا جدًا، بعدما صدر للأجيال الجديدة صورته كـ«شنكوتي»، عصام كاريكا ملحن عبقري بدأ حياته مديرًا لفرقة حكيم، وملحنًا لأغنيته الشهيرة «بيني وبينك»، ثم قدّم ألحانًا متنوعة بين الدراما والرومانسية أشهرها «وهي عاملة إيه دلوقت» لعمرو دياب.

طرح محيي «أعاتبك» عام ١٩٩٣، فكانت أيقونة المرحلة، وسط نجاحات راسخة لعمرو دياب ومحمد فؤاد، شقّ معها «محيي» طريقه كنجم قادم بقوة، ولكنه تخلى عن تلك النجومية مترفعًا عن السعي وراء الحفلات والأفراح، كان فقط يختار ما تميل له ذائقته، وهو بذلك لامس مشاعر كثيرة ظلت محتفظة به في درج الذكريات، تحنّ إلى صوته من حين لآخر، فتنفض عنه تراب الأيام وتعيده للحياة.

يغني «محيي» «وصوا الأيام عليا»، فأقطع الطريق من القاهرة الى الإسكندرية وأنا أفكر فقط في حكمة الأغنية «لو كان حكم القدر إنك تفضل يا قلبي تايه طول السنين، تدور على المحبة في بلاد فيها الأحبة نسيوا الشوق والحنين»، وما العمل؟ لا حيلة متاحة سوى الرضا بالنصيب، والرضا

مفتاح يضمن إغلاق باب الذكريات بشكل مُحكم، لا تصدّق من قال لك إن صناعة ذكريات جديدة ستمحو الماضي، هي فقط تنقلها للأرشيف، وهو مكان في الذاكرة يفتح أبوابه للزوار فقط في أيام الفراغ، والفراغ قاتل تسلسلي يمارس هوايته بالفتك بك قطعة قطعة، يذبح إرادتك، ثم يخنق حماسك، قبل أن يسمم شغفك ببطء، إلى أن تنهار قواك، فيتركك أمام الناس خيالًا لشخص بالكاد يتذكرون أنه مرَّ من هنا.

تقول الكاتبة البريطانية إليزابيث بوين: «إن سحر الذاكرة وعبقريتها أنها متعنتة صعبة الإرضاء.. متقلبة غير مأمونة العواقب.. أحيانًا ترفض أشياء عظيمة فاضلة.. على حين تطبع صورًا واضحة لأشياء صغيرة تافهة»، ولهذا أؤمن بأن من يجيدون صناعة التفاصيل الصغيرة في حياتنا هم فقط من سيبقون في الذاكرة.

«شارع الهوى»
غناء: محمد محيي
ألحان: محمود طلعت
توزيع: فهد
إنتاج: روتانا